

الحوافز

بقلم مهران طمسون

الحوافز وأهميتها

رسب طالب في إحدى جامعات أميركا في امتحان الفترة الأخيرة من السنة الدراسية في المواد التي يدرسها جميعها عدا مادة واحدة هي مادة تعرف بـ « كيف نذاكر » وهي مادة مقررة الغرض منها إفهام التلاميذ كيفية المذاكرة المجدية وكتابة المذكرات وعمل الملخصات والرجوع إلى المؤلفات التي في المكتبة وعمل البحوث العلمية وما إلى ذلك من شئون تفيد الطالب في حياته المدرسية . ويدلنا ذلك على أن المعرفة التي لا تتولد عن الشوق والتي لا تعتمد على الرغبة حتى تتأصل فينا وتصير جزءاً من حياتنا هي معرفة ناقصة وغير مجدية . وهذا هو السبب الذي يجعل « للحوافز » تلك الأهمية في التربية . فالحوافز إذن هي القوى المحركة التي تدفع بنا للعمل . وإذا كانت التربية فناً الغرض منه الحصول على أكبر مقدار من تكييف الفرد لبيئته وتوفه فيها فإنه يتحتم الرجوع إلى الحوافز لكي نحصل على ما يدفعنا إلى ذلك ويشوقنا للعمل حتى نصل إلى الهدف المطلوب . فالحوافز إذاً هي العمود الفقري في شئون التربية ونظام التعليم . وقد قيل لرجال جبال كنتيكي الأميين في أميركا إن وسيلتهم الوحيدة لكي يتصلوا بأبنائهم المقاتلين بأوروبا في أثناء الحرب العظمى هي أن يتعلموا القراءة والكتابة ، فأدهشت رجال التربية السرعة التي تعلم بها هؤلاء الشيوخ مبادئ القراءة والكتابة ودل ذلك على أنه إذا وُجد حافز للعمل اندفع الفرد ليؤدي الواجب بكل همة ونشاط . ولنبرهن على أهمية المثل المذكور نقول إن كثيراً من هؤلاء الشيوخ كانوا قد تعدوا السبعين من سني حياتهم . ومع ذلك فقد تعلموا ما يودون تعلمه في بحر بضعة أسابيع وأتموا في هذه الفرصة القصيرة ما يحتاج الصغار ولاتمامه في المدارس العادية إلى بضعة شهور . والسبب في هذا يعود إلى أن هؤلاء الشيوخ وجدوا

ما يحفزهم للعمل بينما الأطفال ينقصهم ذلك مع العلم بأن تعلم الصغار أسرع من تعلم الكبار وأسهل. ومهما قيل في التربية والتعليم فإن ذلك لن يتعارض مع الحقيقة وهي :- أن العوامل التي تحث على العمل وتشوق إليه وتدفع نحوه وتحفز له تلعب الدور الأهم في عالم التربية والتعليم. ومن المؤسف له حقاً أن هذا المجال هو أضيق المراحل في الطرق الفنية التي لم تتقدم فيها التربية والتعليم بعد.

تعريف الحافز

نتقل الآن لتعريف « الحافز » فنقول إن دوائر التربية تشير إلى أنه « فن إيجاد الرغبة في التلميذ إذا لم توجد عنده، أو إثارتها إذا وجدت دون أن يشمر بها أو يفتن إليها ». ثم إن هذا الفن يستغل الرغبات الموجودة لتعليم المواد الدراسية المقررة فالحوافز هي عوامل التشويق التي يرجع إليها المدرس والمدرسة لإثارة ما يدفع التلميذ إلى التعلم والنشاط. وهي الدوافع التي تعمل على تنشيطهم وإثارة انتباههم وحثهم على العمل وهي الحالة التي يتوق فيها التلميذ إلى أن يأتي عمالاً من تلقاء نفسه بلهفة وحماسة. تكون الحوافز في أول الأمر غايات مستقلة. غير أن تلك الحوافز عندما تتحوّل وتصير وسائل تعتمد عليها في الوصول إلى أهداف جديدة تكون أوفى بالمرام. نعلم مثلاً أن التلميذ إذا كرر ويدرس طول العام لكي ينال درجة في آخره. هذه الدرجة التي تحفزه للعمل هي هدفه الأول. ولكنه عندما يناهز تراخي له الدرجة وسيلة ليتمكن بها من الانتقال من فرقة إلى فرقة أعلى. ثم ينتقل هدف النجاح من فرقة إلى أخرى لكي يكون وسيلة الوصول إلى المدارس العليا وليتطلع آخر المرحلة إلى شهادة فنية وهكذا ينتقل كل هدف ليصير بعد ذلك وسيلة لشيء أفضل. فالشهادة وسيلة التعليم العالي، والتعليم العالي وسيلة إلى الوظيفة. والوظيفة وسيلة للحصول على المال. والمال وسيلة للزواج. والزواج وسيلة المعيشة العائلية وانجاب الذرية وهكذا. ويفيد هذا الأمر في تحليل الأعمال المدرسية لأنه يمكننا من استغلال الحافز الهدفي أو الأخير - إذا لم يوجد حافز مباشر ووقتي - وبذلك نتلافى بعض الملل الذي يسود عملاً لا يجد فيه التلميذ بعض التسلية واللذة

أنواع الحوافز

الحوافز أنواع تبعاً للحال فهناك (١) الحوافز الطبيعية البسيطة التي تظهر ظهوراً عادياً ثم يتم إشباعها مثل حافز الجوع الذي يبقى عاملاً إلى أن يتم إشباعه . (٢) الحوافز المكتوبة وهي التي لا يمكن إظهارها واشباعها . فالتميد الذي يتعمم عليه البقاء في المنزل لمذاكرة دروسه لا يمكنه الذهاب إلى دور الخيالة لمشاهدة شريط يود رؤيته . (٣) الحوافز المبتورة وهي التي لا تستوفي غير استيفاء جزئي . (٤) الحوافز المستورة أو المخفية التي يعمل بها دون إظهارها . (٥) الحوافز المركبة وهي التي تتألف من أكثر من حافز واحد (٦) الحوافز المستبدلة وهي التي تحمل محل الحوافز الأصلية وتؤدي عملها .

الحوافز الطبيعية

(١) الأفعال اللاإرادية ووظائف الجسم الرأسمية غير الخاضعة للإرادة

يشمل هذا النظام عمليات التنفس ، وحقن القلب ، والدورة الدموية ، والهضم ، وإفرازات الغدد الصماء . وبما أنه لا يمكن السيطرة على جميع هذه العمليات فواجب المربي أن يدرس هذه الأعضاء دراسة جيدة ويقف على كيفية قيامها بوظائفها على أتم وجه وذلك لأنها من أهم الحوافز الطبيعية الأولية . وهذه الحوافز لها أكبر الأثر في عمليتي النضوج ونمو الشخصية . وإن هذه المعرفة مما يساعد المدرس على استعمال حوافز لا تتعارض مع هاتين العمليتين . ومما يظهر لنا عظيم أثر الغدد في التحكم بالشخصية أن خلل الغدة الدرقية وحدها قد يكون سبباً في انحطاط الإنسان إلى مستوى يسقط فيه من عداد الجنس البشري . فقد يصل إلى درجة عدم معرفته لاسمه الخاص . غير أن العلم الحديث قد كشف عن أنه لو حقن هذا الفرد بمستخرجات الثيروكسين (Thyroxin) أو خلاصة الغدة الدرقية لاستكمل ما ينقصه من هذه المادة واستعاد حالته الطبيعية وبقي كذلك ما دام يتعاطى تلك المستخرجات .

نورد مثلاً آخر للدلالة على أهمية إفرازات الغدد الصماء : قدم أحد الأطباء

تقريراً في مؤتمر للجراحة قال فيه إنه أجرى عملية دقيقة انتهت بالنجاح . وتتلخص تلك العملية في إرجاع إحدى النساء الملتصحات إلى حالتها الطبيعية وقد اعتمد في علاجه على تحديد إفرازات الغدد الصماء بأن أنلف نحو ثلثي كل غدة إتلافًا تامًا . فهل يكون من العجب بعد ذلك لو قلنا إن المستقبل للكيمياء في السيطرة على عوامل التشويق وحوافز العمل ؟ وربما كان لكل حافز مادة معينة يحقن بها الفرد فيتم الأمر المرغوب فيه . والمقصود من هذا أنه لم يهد في الإمكان التفاضل عن المستكشفات العلمية بل يتمتم الرجوع إليها في كثير من شئون التربية وعلم النفس

(٢) العادة

تظهر لنا الأفعال الانعكاسية والوظائف الدخلية غير الخاضعة للإرادة قيمة العادة . لأنه قد يكون للعادة نفس المميزات ومن هنا تأتي قوتها الهائلة . فالعادة المكتسبة ليس من السهل الإقلاع عنها . والكل يعلم قوة الحافز للتدخين عند الذين ألفوا تلك العادة . وهكذا في أغلب أمور الحياة فإننا نعلمها « بحكم العادة . » ومن هنا يتضح لنا أن كل عادة طيبة مرغوب فيها تعلمها الطفل وتثبت فيه تساعد على تدعيم حياته الانفعالية ونمو شخصيته وتكوين أخلاقه . وقد تكون العادات أهم بكثير من اكتساب معرفة لا تنفع في شيء . ومن المعلوم أن فن تكوين العادات ينبو مكانًا هامًا في عملية التعليم نفسها . قال وليم جيمس : - إن من الواجب اكتساب أكثر ما يمكن من العادات المفيدة في سن مبكرة . ولا يزال هذا القول معمولًا به .

(٣) الفرائز والنشاط الجثماني

من المعروف أن جميع أفراد الجنس البشري العاديين يولدون وفيهم ميول آلية تعمل بالفطرة لمقابلة كل حالة بما يناسبها . وقد يسمى بعضهم هذه المقدرة بسلسلة الأعمال أو الحركات الانعكاسية . وقد يفضل البعض الآخر أن يصفها بنتيجة التوافق المبكر للبيئة .

غير أنهم يتفقون جميعاً على ان العمل بما تمليه هذه الميول عند ما تكون مستعدة لذلك مما يرضى أو يشبع الخلية والمضو والكائن الحي ويضعها في حال الانسراح والارتياح . واما كبت هذه الدوافع واحباطها فينتج لها المضايقة والانزعاج ويجعل الفرد في حالة انقباض . ثم إن جميع الفرائز التي تنطلق من قيودها وتهرب عن نفسها إما ارتياحاً أو انقباضاً تبني أساس تصرفها في المستقبل وتحفر طريق سلوكها . نرى إذاً أنه يتحتم هنا دخول المربي الميدان ليعد المسالك المناسبة لكي تنطلق فيها هذه الفرائز تحت الارشاد الحكيم والإشراف السديد . وهذه الحوافز الفرزية من أفضل ما يمكن أن يعتمد عليه المربي للتشويق وبدء العمل . فقد حبتنا الطبيعة بقوى هائلة سلحت كل فرد بها ليأتي الى هذا العالم مستمداً للنضال والسكفاح .

(٤) الشهية

الشهية حافز آخر طبيعي يفوق كل الحوافز الأخرى من حيث الالحاح والشبات . فالشهية تؤدي إلى تنمية ملكة الذوق السليم وهي ملكة أساسية في الثقافة والتربية . وما تستطبع التربية عمله في هذا المجال هو العناية باختيار الملابس الحسنة المناسبة والتدريب على العادات السامية حتى يتم تهذيب الشهية أفضل تهذيب

(٥) الوجدان

من أهم العوامل التي تساعد المدرس على السيطرة على عمله والتي تعاونه على أداء واجبه كما ينبغي عاملاً الانسراح والانتقباض اللذان يلانمان كل فعل يؤديه الفرد . فالمدرس القدير هو الذي يهيب الانسراح لكل حالة يود أن يشجعها وينميتها بينما هو يعمل ضد ذلك للحالة غير المرغوب فيها . ومما يؤسف له أن تتحول الحالة التي يرغب المدرس فيها ويعمل على تشجيعها إلى عكس ما يبتغى فتأتي النتائج على خلاف المقصود . نضرب مثلاً لذلك المدرس الذي يود أن يربي في تلاميذه المبتدئين ملكة الرغبة في مطالعة الأدب الرفيع فيلزم تلاميذ فرقته دراسة مؤلفات أشهر الكتاب والمؤلفين فلنا منه أنهم بدراستهم هذه سيتذوقون أحسن ما في الأدب فيعتادون

عليه و يتربى فيهم الذوق السليم والتقدير الفني العالى . وبما أن هذه المؤلفات تكون عادة من الصعوبة بمكان يكره التلاميذ هؤلاء الأدياء ويصممون على عدم الرجوع إلى تلك المؤلفات طول العمر . وكثيراً ما يبر التلاميذ بهذا المهد . ومفزى ذلك أن حسن التصرف لازم في هذا المجال لزومه في جميع شئون الحياة التي نود النجاح فيها .

(٦) اللعب والرياضة

إذا اعتبرنا اللعب هدفاً مستقلاً نسمى اليه ، والعمل وسيلة لنحصل على هدفنا الأسمى ، يتضح لنا السر في انشراحنا وقت اللعب بينما نجد في أثناء الشغل كل سامة وضجر . ونجد عادة أن الحافز الأخير هو الذى يجلب الانشراح ، فاللعب من هذه الوجهة هو أقرب الحوافز إلى النفس وأسهلها طريقاً . ولهذا السبب قد سمعنا كثيراً عن التربية عن طريق اللعب وميادين الرياضة . ولم نذكر ذلك إلا لئلا نلفت النظر إلى أنه من الممكن الانتفاع من حافز اللعب في الحياة المدرسية فأن حالة الانشراح التي تلازم اللعب يمكن نقلها إلى مجال آخر لو حدثنا في وقت واحد . وبما أن حالة الانشراح في هذه الأثناء تكون ملازمة للعب فانها تسود تبعاً لذلك العمل فيتصف باللذة والغبطة مما يزيد في رغبة التلميذ وحببه له .

وقد أدت الأبحاث العلمية إلى تحول التربية البدنية من تمرينات نظامية ، وجمبازية ، وتدريب معينة إلى ألعاب رياضية ومباريات خلوية تحتاج إلى ميادين (Games & Sports) . فقد ظهر أن الألعاب الرياضية تدرّب الجسم على الحركات المنتظمة والعمل المشترك، كما تبين أن التلاميذ يتلذذون بها ويسرون من الاشتراك فيها مما يؤدي إلى تكوين الدوافع التي تزيد في العادات المفيدة وعلى ذلك نرى أنه بالانتقال من الأنظمة القديمة في التمرينات النظامية للجماعات إلى الألعاب الرياضية الحديثة قد حلت معضلة التشويق . ولا تقتصر ميزة الألعاب على فائدتها الصحية فقط بل إنها تمتدى ذلك إلى الفائدة التي تعود من اشتراك التلاميذ الاختياري فيها مما جعل المسألة الآن تنطور إلى التفكير في كيفية منع التمرينات المرهقة التي تعتمد عليها مدنيتنا الحاضرة لكي تقيم حفلات التسلية والمسابقة طلباً للاعلان والشهرة .

وقد أدت في الماضي المكافآت الاجتماعية أو المالية والسكروس التي تمنح للمتفوقين إلى ضياع قيمة التربية البدنية حتى للأفراد القلائين الذين يشتركون بكل حماسة في الألعاب تقليدياً لغيرهم وحباً في نيل الشهرة .

(٧) الرغبة في إظهار الشخصية

لهذا الخافز في الحقيقة وجهان . أولها الرغبة في التهويل وتعميم النفس . وثانيهما الرغبة في إظهار الشخصية بواسطة العمل في الجماعة . وكل فرد يحب الأسباب والأشخاص والحالات التي تنكسبه المظنة الكاذبة وتجاهله يشعر بالأهمية والزهو ونحن نكره هذه الأشياء لو أنها حرمتنا مما يشرح قلوبنا ويسر خواطرنا وكانت سبباً في أن ينظر الينا نظرة الاستصغار والاحتمار . ويمكننا معرفة أمور كثيرة عن أسباب تصرف الأفراد بشكل معين وسلوكهم بكيفية معلومة لو رجعنا إلى موضوع الخوافز . فحب الظهور ولفت النظر والغيرة والحقد والمنافسة ونكران الجميل والحجل وفقدان المركز الأدبي كلها من الأمور التي تقع تحت عنوان الرغبة في إظهار الشخصية .

فالنظام التعليمي المنتج الحكيم يستغل هذا العامل ويعمل على تنظيم برنامج يتيح للتلاميذ فرصة لإظهار شخصياتهم وتوجيهها في طرق تؤدي بها إلى الانتقال من النوع الذاتي إلى النوع الذي يتركز في الجماعة . فأظهار الذات وإقرار الشخصية والاعتراف بالمركز الأدبي مما يتحتم الحصول عليه لكل طفل وكل إنسان بالغ . فهذه أمور لازمة لشخصية الفرد لزوم الغذاء للجسد . وإذا لم يحصل الإنسان عليها بالطرق الطبيعية فإنه يحصل عليها بطرق أخرى . وهنا نجد إذاً بيت الداء في الأمراض العصبية والاهمال والجريمة . ولناخذ أيضاً حالة الوالد الرديء في المدرسة فإننا نجد في غالب الأحيان أن سيره « الرديء » ما هو إلا وميعة صيدانية مفتعلة يقوم بها ليلافت نظر المدرس إليه وليتبوأ مركزاً بين إخوانه الذين قد يعجبون به لمقدرته على تحمل العقاب بسبب مشاكسته للمدرس . وإن لم يستطع مثل هذا الطالب أن يكون متفوقاً في فرقته من الوجهة الثقافية والعلمية فهو قانع أن يؤدي دور البطل ولو كان ذلك بامتشاده .

الحوافز الصناعية

يسمى الحافز صناعياً إذا كان التشويق للحصول وإثارة الرغبة للمعمل آتئين من الخارج . ويكون الحافز في الأمور المدرسية عندما نزيد رغبة موجودة ونربطها مع عمل مدرسي أو نظام كائن . وترعى المدرسة الحديثة الناهضة أن تضم رغبات التلميذ الطبيعية في المكان الأول غير أنه ما من مدرسة حديثة يمكنها التغاضي عن الحوافز الصناعية .

وإذا كنا نحثم اليوم الدعوة لتنمية العواطف التي تدفع الطفل للعمل ولصيانة كفايته للابتكار والانتاج باستعمال أقل ما يمكن استعماله من النظام السلبى فى التأديب والتدريب فما ذلك إلا لتمشى مع روح ما نعتقد أنه مثل الحياة الأعلى .
والمبدأ الأساسى الذى تبني عليه الحوافز الصناعية كى تكون ذات أثر فعال إنما هو الاعتماد على الرغبات الطبيعية والميول والمواهب وحاجات المتعلم . وقد راعينا هذا المبدأ فى الاقتراحات التالية .

(١) العقاب

العقاب هو أقدم طريقة معروفة استعملت لضغط على الأطفال وإلزامهم بتأدية الأعمال . وبما أن المدرس الناضج الرجولة يفوق عادة تلاميذه من حيث الوزن الجسمانى ، والحجم ، والقوة البدنية ، والمقدرة المالية ، والمركز الاجتماعى ، فهناك كل ما يدعو لاستغلال هذا الموقف الطبيعى . وقد قضى على العقاب الجسدى من زمن لأن هذا النوع من العقاب كثيراً ما أدى إلى عاهات بدنية وإيذاء الجسم التلميذ . غير أننا ما زلنا نستعمل العقاب أحياناً فى التأديب الجسدى كما فى السجنون مثلاً ، إلا أن أغلب استعماله يكون فى الاتجاهات العقلية والنفسية .

نعمد فى العقاب على الحافز الطبيعى وهو الخوف - الخوف من الألم الجسدى والخوف من الخجل والتوبيخ والخوف من فقدان المركز . والنوع الأخير هو أهم الأنواع .

والخوف حافز قوى قد يؤدي إلى رد فعل يضع التلميذ دائماً موضع الحذر . غير أن هذا الكسب غير المضمون لا يبادل مطلقاً الضرر الناتج في شخصية التلميذ والمؤدي إلى هدم مبزاة الاعتماد على النفس في العمل الناتج المنتج ، وإلى خلاق روح الضعفة في نفس الطفل . وقد يكون للعقاب تأثير تفنن عنده كل سيطرة لارادة الطفل على إتيانه أى عمل أو حركة كما يشاهد في حالات الخوف الشديد عندما يشل الفرد عن أداء أى حركة فيقف في مكانه لا يبدي حراكاً - وقد يسفر العقاب الشديد عن هدم شخصية الفرد أو بث روح الرعب والخقد . ومن عيوب العقاب أنه ينظم العمل الخاطيء فيخلق انفعالات قوية في نفس الطفل وهكذا يعمل العقاب على إظهار ما يجب العمل على وأده .

والعقاب حافز سابي وهو من الروادع التي تنقصها صفات الانتاج والابتكار والتطور والنمو . وإنه من أضر الأمور وأقلها غذاء لتنمية الشخصية في المجتمع الديموقراطي الحر . ونعود فنقول إن أسوأ أنواع العقاب فقدان المركز أو المنزلة . وأى عقاب أسوأ من ذلك الذي يشعر الطفل بأنه خسر مكانته أو أنه لم يمد يستحق الانضمام الى زمرة أو أنه اختلف عن جماعته ولم يمد أهلاً للبقاء معهم . كل ذلك له أسوأ الأثر في الشخصية والروح المعنوى . وتمثل لهذه الأنواع من العقاب « بالطرطور » الذي يوضع على رأس التلميذ البليد أو الاعلان الذي يعلق على الظهر ثم التعريض للهبز والسخرية والتهكم والانزواء في ركن الغرفة أو الاقصاء من المجتمع لأى سبب من الأسباب . وما زالت مثل هذه العقوبات توقع على المجرمين والمذنبين فيرسلون إلى السجون وبذا نفقد كل احترام للذات ونقتل فيهم الروح المعنوية ، حتى إذا ما تدمسوا نسيم الحرية لم يجدوا فرصة تمكينهم من رد شرفهم واعتبارهم فكل ما يصم الأفراد صغاراً كانوا أم كباراً بوصمة العار والخزى سواء أ كان أديباً أم معنويًا - أمر ذوبال وعامل مهم في شئون التربية التي تعمل على تهذيب النفوس لتحيا حياة اجتماعية هائلة .

(٢) الثواب أو المطافأة

يفضل حافز الثواب على حافز العقاب لأنه عمل إيجابي فالثواب يدعو إلى العمل

الانشائي والقوة والمنافسة وإظهار الذات والابتكار والانتاج . ويعتمد الثواب على تعظيم النفس وعلى الزهو والابتهاج الذي يلزم النجاح . ثم إنه يبث روح الضمان والاطمئنان والاستقرار والمركز الشخصي . وكما هو الحال في العقاب فإن الثواب قد يكون مادياً أو اجتماعياً أو روحياً . فالثواب المادي هو ما اتخذ شكل الهدايا والجوائز والمال والأشياء الأخرى المادية ذات القيمة الجوهرية والتقدير الذاتي . أما الهدايا والجوائز ذات القيمة العرضية فمنها المدح والترقية والأوسمة والمراكز الرفيعة التي تدل على تقدير والدرجات العالية وما إلى ذلك .

والتشويق للعمل بالثواب له ميزات عديدة . فإنه قد يتألف من عدة حوافز طبيعية قوية كما قد يكون من الحوافز الدائمة السهلة التطبيق . والخوف كل الخوف من الاعتماد على هذا الحافز أن يقوى ويشتمل لدرجة يضيع فيها الغرض منه فيأتي بنتائج يلزم تهاشيها . تمثل لذلك بالأطفال الذين تثار فيهم الحمية لكسب الجوائز والمكافآت لدرجة يضحون فيها بالأمانة والاستقامة لكي ينالوا ما يبتغون .

ومن المؤسف له حقاً أن حافز توزيع الجوائز والمكافآت والكشوف والشارات والدرجات الذي يعتمد عليه في التشويق وإثارة الهمم ينحط بسهولة فيكون غاية جوهرية تفهني عندها حماسة التلميذ بدلا من ان نستعمل ذلك وسيلة تؤدي إلى هدف حقيقي أكثر فائدة . وربما كانت الدرجات الرقمية والشهادات أتعس ما في نظام التربية مما يمكننا ان نمثل به على هذا القول . فنتائج الفترات والشهادات ما كان الغرض منها الا التشويق والاثارة للعمل ولكن كم من تلميذ يأخذ بهذا المبدأ فيقلع عن عبادة الدرجات والنتائج ؟ وكم من تلميذ يقبل أن يفهم أن الدرجة ما هي إلا ميزان العمل الذي يجب عليه أن يسعى وراءه لا أن يسعى إلى الدرجة نفسها ؟ ولكن هيات أن نصل الى الوقت الذي يفهم فيه هذا المبدأ على حقيقته . والنتيجة العملية لهذا النظام تؤدي بالتلميذ إلى الغش في الامتحان لكي يحصل على الدرجة التي هي كل شيء يسعى إليه . فإن هذه الحال وما تسعى إليه التربية أمران على طرفي نقيض . ولا نلوم الصغار على هذه الحال فالكبار المفروض فيهم كمال النضوج ورجاحة الفكر والذين يعملون ويكدون لنيل الدكتوراه في الفلسفة أو التربية أو الاداب أو العلوم

أو الفنون أو غير ذلك - ليسوا أفضل حالاً ، هذه الدكتوراه التي تطبع الحاصل عليها بطابع الثقافة المنتجة الكاملة ، وهذه الوثيقة التي تتوجه رسمياً على مملكة البحث والتنقيب ، وهذه الشهادة التي تصرح لحاملها بدون قيد دخول ميدان البحث والتأليف ، فماذا يعمل بها الحاصل عليها ؟ بدلا من أن تكون حافزاً له لعمل ما ينص عليه معناها نجد أن صاحبها يقول : الآن وقد حصلت على أعلى الشهادات التي تدل على وصولي إلى درجة الكمال فيمحسن أن أرتاح من عناء العمل ! فهؤلاء ينظرون إلى الدكتوراه هدفاً جوهرياً ، وهم لا يعلمون أنها مفتاح الباب إلى ما هو أسمى وأبلغ شأنًا . ولا يعلمون أن الحصول عليها لا يدل إلا على إتمامهم لطرق البحث وعلى انهم وصلوا إلى مبدأ العمل المنتج المبتكر لا إلى نهايته

(٣) التعاون

يعتمد حافز الثواب على المنافسة وانتصار الفرد . يدخل الجميع السبق ولكن فرداً واحداً هو الذي يربح الجائزة ويفوز بالأولية . وهذا ما يجعل حافز الثواب متعارضاً مع ما تسمي إليه التربية من التآزر والمعيشة الاجتماعية مما يعد ضمن الأعمال التعاونية ولهذا فيمكن الاستمساة عن التنافس الفردي بالتنافس التعاوني . وذلك بأن يعمل كل أفراد الفرقة الواحدة على التنافس مع أفراد فرقة أخرى . وقد يتساءل أحدنا ، وما القول في الخصام أو التطاحن الذي ينشأ بين أفراد الفرقين نتيجة لهذا التنافس ؟ وما يكون شأن أفراد فرقة في درس الأخلاق مثلاً حيث نرغب في تعليمهم المحبة والتضحية ومساعدة الغير وما شابه ذلك من فضائل لو أننا قسمنا هذه الفرقة إلى قسمين وعمانا على إثارة حمية التلاميذ بحافز المنافسة والنضال ؟ فلا شك أن المنافسة ستشتمد لدرجة أن أفراد كل قسم من القسمين ستظهر فيه روح الكره والغيرة وحب الانتقام من الفريق المنافس . وهذا فيه من الضرر الظاهر ما فيه .

ولو أخذنا بالتحفظ السابق لأمكننا القول إن التجارب العملية في هذا الباب دلت على أن حافز التنافس التعاوني الذي يشترك فيه أفراد عديدون هو حافز مجدي

(٤) الاشتراك العملي مع الغير

يتمشي الاشتراك العملي في شئون الغير مع التعاون الذي سلف الكلام عنه . فالفرد الذي يود أن يكتسب مركزاً في هيئة ما وأن يحتفظ بذلك المركز، عليه أن يشترك في أعمال الجماعة اشتراكاً فعلياً بكل معنى الكلمة وإلى أقصى حد ممكن . فليس من المعقول أن يهدم الإنسان بناءً اشترك هو في تشييده . وعدا ذلك فإن الفرد الذي يشترك عملياً في اجتماع ما يكون مهتماً ومنتبهاً أكثر بكثير من الذي يكون حاضراً دون أن يؤدي عملياً أي أمر من الأمور . وتلجأ الشركات والبيوت التجارية إلى هذا الحافز فيطلبون إلى عملائهم أن يتصلوا بها ليدلوا بأرائهم عن منتجات الشركة . وما يبغى أصحاب البيوت التجارية والصناعية من وراء ذلك إلا اكتساب اهتمام الزبائن وتشويقهم لمعاملتهم ، بأن يشركوهم في عمل هذا المحل وفي تتبع أعماله دون أن يكتسب المحل في أغلب الأحيان أي شيء يؤدي إلى التمسسين نتيجة لآراء هؤلاء العملاء ، وكل المكسب ينحصر في اكتساب رضي هؤلاء العملاء واستمرار معاملتهم .

والاشتراك في العمل رغبة طبيعية موجودة في الأطفال . وفضلا عن إتفاق هذا الحافز مع الرغبة في طاب المركز الشخصي وروح الانتاج والابتكار وحب العمل فإنه أحسن سبيل مؤد إلى إشباع الغريزة الاجتماعية . ويؤدي الاشتراك في العمل إلى تنمية روح الديمقراطية في البيت وفي المدرسة . لأن هذا يعني إعطاء الطفل فرصة لإبداء رأيه في شئون الحياة الاجتماعية وإفساح مكان له ليشترك في أعمالها اشتراكاً حيوياً حقيقياً . يتطلب هذا الرأي إذ وجود هيئة اجتماعية تنظر إلى الطفل محوراً لها ويتطلب أيضاً وجود محيط مدرسي يضع الطفل في مركز دائرته .

(٥) جذب جميع نواحي الشخصية

إذا كان الرجوع إلى حافز واحد له تأثير معلوم ، فطبعي ان يؤدي الرجوع إلى حافزين أو أكثر إلى تأثير أشد وأقوى . ولا شك أن جذب جميع نواحي الشخصية يصل بنا إلى رأس الحوافز على الإطلاق . ومن أهم ما يجب تلافيه في هذا الشأن

الضغط على الشخصية والتضييق على حريتها بالأوامر النهائية التي لا يخلو أولها من « هو » . فكثيراً ما يؤدي ذلك إلى المداوة وإلى اتخاذ خطة عدم التعاون . ويفضل على ذلك طريقة تهيئة الفرص المناسبة لسكي يتمكن الفرد من إظهار شخصيته وإطلاق الحرية التي يشدها .

(٦) الاسوة الحسنة

من المشاهد أن الاسوة الحسنة والقذوة الحميدة حافز فعال لإثارة التصرفات المرضية والخطط والميول الحسنة . ولذلك نجد أن الأسرات الأصيلة في الفن والجاه والنبل تتوارث تصرفاتها حتى يظهر لنا أن صفات تلك الاسرات جزء لا يتجزأ من طبيعة أفرادها . وبمكس ذلك ما يظهر لنا من ساوك « حديث النعمة » . فنجد هذا الأخير ناقص التدريب يتصرف تصرفاً مختلفاً عن النوع الأول الأصيل . وذلك لأن الفرصة لم تتمح له ليمتحن من صغره على محاكاة كبار أفراد الأسرة والاقتراء بهم .

نتقل الآن إلى القول بأن شخصية المدرس عامل عظيم في هذا المجال ولذلك يجب الالتفات إلى شخصية الانسان الذي يهد نفسه ليكون مدرساً بالمقدار الذي يلتفت فيه إلى مؤهلاته العلمية . ويتقاسم مسؤولية إعداد القذوات الحسنة للأطفال كل من المنزل والمدرسة ويكون نصيب المدرس في ذلك كمنصيب الوالدين سواء بسواء . والقيام بأعباء وظيفة القذوة الحسنة أمر محتم على هؤلاء في كل وقت . ويجب أن تقدر تأثير شخصية الوالدين وشخصية المدرس على منوال أعظم بكثير مما تقدر تأثير ما يقولون أو ما يعملون . هذا إذا نظرنا إلى أثر هذه العوامل من حيث نمو أخلاق الطفل وشخصيته .

ولننظر الآن كيف يؤثر نوع المعيشة البيتية في أخلاق الاولاد . فإذا كان أهل البيت لا يحترمون حقوق الملكية ولا يراعون الأمانة فالمنتظر أن يشب الأطفال على الكذب والنش والسرقة . وإذا عاد الأب إلى البيت وقص على مسمع من أولاده كيف غش عميله وغالطه في الحساب ثم كيف استطاع أن ينتقل في الترام أو السيارة

العامة دون أن يدفع ثمن التذكرة فلا شك في أنهم سيستمعون إليه ثم يعملون بعد ذلك على محاكاته وبزه في الخداع والتفوق عليه في الغش .

وقد يأتي التقليد على صورة أخرى فيحاول المرء الاقتداء بفكرة سامية أو مثل أعلى . فالأمر كما ترى ليس مقصوداً على تقليد الأشخاص .

(٧) عبارة الأبطال

كل منا يعبد بطلا من الأبطال ويتقدي به . ويرجع السبب في ذلك الى أننا نبنى اتباع مثل أعلى أو فكرة سامية نجدها في بطلنا ثم أننا نتخيل أن البطل يشبهنا في كثير من الصفات التي تتحلى بها أو أنه يتصف ببعض ما يعجبنا من صفات أو سلوك . وهكذا نجد فيه مثلاً حياً وشخصية عاملة ومادة حقيقية لما نبنيه في الخيال من صور وأفكار . ومعلوم أنه أمهل علينا أن نتبع شخصاً من أن نتصور فكرة . ولا توجد طريقة يمكن بها تقييد اختيار الأطفال لأبطالهم غير إظهار الصفات الحسنة للشخصيات التي تصلح لأن يقتدى بها . ومع ذلك فقد يختار الطفل الرجل الوضيع بطلاً له ثم ينتقل من بطل الى آخر حتى تنتضج آراؤه فيكون بنفسه مثله الأعلى الذي يرتضيه . وقد وجد أن أفضل ما يمكن عمله لتقييد اختيار الأبطال هو التأثير الاجتماعي الذي يعتمد على القدوة والميول والخطط .

(٨) تأثير الرتبة الاجتماعية

هو تأثير المجموع على الفرد كما أنه الضغط الذي تأتيه الهيئة الاجتماعية على الفرد حتى يصل إلى ما تقبله . فكل شيء حكمت عليه الهيئة أنه مفيد أو وضعت موضع التنافس سعى الفرد وراءه . ثم إن ما يعمله الانسان من أمور وما يقوم به من مخاطر ليس إلا ابتغاء الحصول على رضى المجتمع . ويمكن الاستفادة من التأثير الاجتماعي بوجه عام أو بالتخصيص . فيمكننا تركيزه في أمر واحد أو في الشخصية بأكملها . ويمكننا كذلك تطبيقه على جماعة محدودة مثل البيت أو المدرسة كما يمكننا تطبيقه على هيئات

كبيرة تتمدى الأمة الى جماعة الأمم ، كما حصل في حالة تطبيق المقوبات على الحكومات المتعدية . . . ؟

ارشادات عملية لخلاصة ما يهيم في الحوافز

لم نصل بعد الى الكشف عن كل مكونات الحوافز . غير أن النقط الآتية اقتراحات نعرضها للدرس والتجربة والتطبيق ونذكرها اعتماداً على آخر ما وصل اليه البحث في هذا الموضوع .

- (١) اعتمد على الحوافز الطبيعية . فابدأ بحوافز موجود مهياً للعمل والأفضل إذا كان هذا الحافز قد بدأ في ذلك فعلاً وإلا ضاع الجهد . وإذا جرى اقتراحك عكس رغبة الطفل - نتيجة عدم الانتباه أو اليقظة - لم يفهم غايتك ولم يستطع القيام بمطلبك
- (٢) اربط الحوافز الجديدة بالحوافز القديمة
- (٣) ليكن اقتراحك مما يثير رغبة شاملة غير مقيدة أو محدودة
- (٤) استفد من قوة الحافز الأصلي
- (٥) كل محاولة يجب أن تتفق مع حاجة الطفل . وبما أنه قد يحس هذه الحاجات وقد لا يحسها فجاهد لكي تجعله يحس بما لا يحس به .
- (٦) استعمل كل الوسائل المشروعة لتجعل الحافز النهائي جميلاً واضحاً حيويًا .
- (٧) كن يقظاً لتلافى الحوافز السلبية مثل القوة الدافعة للاستمرار في العمل ، والتعب ، والمرض ، والتوعلك ، والمهات الجسدية والعيوب الجثمانية ، وكل اختلاف في توازن الشخصية وتوافقها .
- (٨) استعمل بوجه خاص الغريزة الاجتماعية والرغبة في اظهار الشخصية واحتلال المكانة الاجتماعية .

(٩) شجع العمل المشترك . واخلق فرصاً لذلك إذا احتاج الأمر

(١٠) اعتمد على أكبر عدد ممكن من الحوافز

(١١) اجذب الشخصية بأكلها واهتم بجميع نواحيها

(١٢) كن متحمساً ، فالحماسة معدية

(١٣) استخدم الأشخاص خصوصاً الأطفال للآثاره والتنبيه

(١٤) استغل عباده الابطال

(١٥) اقترض الحمية والغيرة من الحافز النهائي وحوّلها الى الحافز العامل كي يسهل

الوصول الى الهدف

(١٦) اعتمد على التأثير الاجتماعي واستعمل قوته بحكمة

(١٧) إذا اضطررنا لاستعمال العقاب فيجب أن يكون الغرض منه منفعة المقاب

وليس لارضاء شهوة الانتقام في المقاب . ويتحتم معرفة المنفعة التي سيؤدي اليها ذلك المقاب ثم مراجعة النتيجة للوثوق من الفائدة . أبداً - لا تخف ولا تعب ولا تضيق

على الفرد مركزه الشخصي . فليكن المقاب النتيجة الطبيعية لفعل المذنب

(١٨) يفضل الثواب على العقاب في الحوافز . ويجب أن تستعمل الثواب كما

تستعمل التوابل إذا كنت موقناً أنه يثير الرغبة في العمل ويشوق إلى التحصيل ، لا لمنع ضرر تود تمحيشيه . والأفضل أن ينتهي عمل الثواب بالوصول الى النتيجة المبتغاة

(١٩) كن أنت نفسك قدوة حسنة . فان شخصيتك وتصرفك يقولان أكثر

مما تستطيع قوله باسانك

(٢٠) لا تخجل أن تستعمل حافز الوجدان فانه حافز شديد

(٢١) للحوافز أضرار كما أن لها منافع . فمن أعظم أخطارها أن تدفع نوعاً من

التصرف بحافز قوى كالثواب والعقاب في حين لا يكون الفرد مستعداً للعمل وهو ليس في حاجة إليه . دع النمو والنضوج الطبيعيين يؤديان عمل الحافز بدل أن توجده أنت

بالترق الصناعية . فكثيراً ما يصلح النمو من عيوب الأ ولاد فيظن الكبار أن الفضل في ذلك يعود إليهم . ولا تشوه عملاً « رديئاً » بعقاب أحق وتمحاش كل عمل يولد

في الطفل روح الكراهية والنفور والاشمئزاز .